الرقم الدولي المعياري للمؤتمر (معتمد ومصنف دوليًا) ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية

تعليم اللغة العربية في المستوى الجامعي: النهج العربي التقليدي أم الغربي؟

نينو إيجيبادزه

أبدع النحويون العرب في القرون الوسطى منهج وصف اللغة العربية الفريد من نوعه والذي نشأ في المدارس النحوية أولاها مدرستا البصرة والكوفة[1]. كان هذا المنهج يهتمّ بالنحو والمعجمية على التساوي تقريبا[2]، الأمر الذي يعني أن عرب العصور الوسطى فهموا الوحدة اللغوية ودرسوها من كل نواح تتصف بها اللغة. عرف آنذاك العالم مدارس لغوية أخرى (على سبيل المثال الهندية وهي الأقدم[3])، إلا أن القول بإن النحو العربي التقليدي تأثر كثيرا بتلك المدارس الأجنبية ليس صحيحا. طوّر النحويون العرب تعاليمهم الخاصة المعتمدة على فهم اللغة العربية العميق.

من الناحية الأخرى، هناك مدرسة وصف اللغة العربية التي تُعتبر جزء اللغويات الغربية (الأوروبية)[4] وهي تصف وتدرس اللغة العربية في تناسب مع المناهج الخاصة بعلم اللغويات الأوروبية ومصدرها أساليب وصف اللغات التي تكيفت على اللغات الهندأوروبية ثم انتشرت على لغات أخرى وضمنها اللغات السامية والعربية بالذات.

وبما أن أصول هاتين المدرستين مختلفة، فإن نقطة نظرهما أيضًا تختلف في وصف بعض التفاصيل اللغوية. يهدف المقال الدراسة المقارنة الموجزة بين المدرستين مع التناول التقديري بينهما أخذا بعين الاعتبار دورهما في تعليم اللغة العربية خصوصا لغير الناطقين بها في التعليم الجامعي.

تبدوا الاختلافات في تناول المواد في كل مستويات لغوية: الصوتيات والصرف وتركيب الجملة، من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الاختلافات تتعلّق بمجال المصطلحات المستعملة في النظرية اللغوية بالتساوي، فضلا عن رؤية المواضيع نفسها.

من المعلوم أنه منذ الأزمنة ما قبل الإسلام وفجر الإسلام في بعض اللهجات العربية غابت علامات الإعراب بينما في اللهجات العربية الأخرى كانت هذه العلامات تُنطق بأكملها (كما هو الحال في اللغة الفصحى)[5]. وبما أن علم اللغويات الأروبية تدرس اللغات حسب المناهج المستعملة لوصف جميع لغات العالم، فإن هذا العلم يرى أن حيث تخلت بعض اللهجات عن علامات الإعراب وتعبّر فيها عن المحتوى دون الإشارة إلى وظائف الكلمات في الجمل بمساعدة هذه العلامات، فإن اللهجات مثل تلك تنتمي إلى اللغات التحليلية (Analytic languages)، في حين يتمّ تصنيف اللهجات الأخرى واللغة الفصحى التي تعبّر عن المضمون بواسطة تلك العلامات على أنها تنتمي إلى مجموعة لغوية أخرى – اللغات التركيبية (languages Synthetic). ولكن تناول الاختلافات بين اللغة الفصحى واللهجات العربية كأنها تتباين عن بعضها البعض إلى هذا المقدار ليس صحيحا. كل من يتكلم العربية لَيفهم أن الفصحى وكل لهجة أو لغة دارجة أو لغة عامية (مهما كان اسمنا لها) هي لغة واحدة – اللغة العربية، أما التباينات الملحوظة فيها فهي التباين الطبيعي للغات ضمن لغة واحدة. بالكلمات الأخرى، فلا يمكننا تصنيف الفصحى في مجموعة منفصلة عن اللهجات لمجرد أن الكلمات فيها تنتهي بعلامات الإعراب، مجرد الحقيقة أن "الكتابُ" يُنطق في لهجة كـ "الكتابْ" لا يعطينا حقا أن نكوّن نظريات عن انتمائها إلى مجموعة لغوية بعيدة عن الفصحى. إن تصنيف اللغات كاللغات التحليلية والتركيبية مخترع في علم اللغويات لتصنيف لغات لا تربطها الأعراق والأصول نفسها، ولا يجوز تكييفه على

العربية. إن النحويين والمعجميين العرب في العصور الوسطى أدركوا هذا الأمر ووصفوه في معاجمهم عندما كانو يدرّجون بعض الكلمات في أشكالها حسب نطقها في مستويات لغوية مختلفة يسمونها أشكالا "أقوى" و"أضعف" قاصدين بالأقوى النطق الفصيح أما بالأضعف فالنطق الدارجي. وانتهى العلم الغربي إلى نفس النتائج في القرن العشرين عندما نشر فيرجيوسون مقاله المشهور عن الازدواجية اللغوية.[6]

على المستوى الصوتي، يجدر ذكر مصطلح مستخدم في اللغويات الغربية ولكنه غائب في التقليد العربي: الفونيم (phoneme) الذي يعني حرفا منطوقا لديه قدرة على التمييز بين معاني الكلمات وهو حرف يمكن كتابته (إذا كانت اللغة المعطية لديها نظام الكتابة). وكما هو معلوم، ليس كل الحروف المنطوقة في لغات تمتلك هذه القدرة. تميز اللغويات الغربية بين sound وphoneme، أي حرف منطوق عاد وحرف يمكنه التمييز بين معاني المفرادات. بالكلمات الأخرى: إن كل فونيمات حروف، ولكن ليست كل حروف فونيمات. مثلا، ننطق في بعض اللهجات العربية الحرف المتحرك o، ولكن لا يوجد في الكتابة العربية رمز يمثّله وفي نفس الوقت نكتب كلمة "ربع"، ويمكننا قراءتها كـ rub' وكـ rob' وفي كلتا الحالتين نفهم نفس المعنى الواحد: جزء واحد من أربعة أجزاء، وذلك لأن الحركة o مهما نُطقت في العربية لا تستطيع تمييزا بين المعاني لأنها ليست الفونيم، ولا نستطيع كتابتها، إنها مجرد حرف منطوق في اللغة العربية، أما الفونيم هنا – فهو الضمة، التي يمكننا الترميز إليها بوسيلة علامة معينة –ُ وهي التي تستطيع التفريق بين المعاني. يُطرح سؤال: لماذا لم يخترع النحويون العرب مصطلحا مثل الفونيم، مع أنهم فهموا أشياء أدركها العالم بعد مرور قرون؟ لعلّ الرد هنا أنهم لم يكونوا بجاحة إلى مثل هذا المصطلح لأنهم نظروا إلى مفهوم اللغة بطريقة مختلفة عن المنهج الغربي. وما يتأكد في بعض الملاحظات الواردة في هذا المقال أدناه.

على المستوى الصرفي هناك مسألة بارزة: يرى النحو العربي التقليدي أن أنواع الفعل الأساسية ثلاثة – الفعل الماضي والفعل المضارع وفعل الأمر، وضمن المضارع يمكننا تمييز الفعل المرفوع والمنصوب والمجزوم. في حين أنّ اللغويات الغربية (والدراسات العربية جزء منها) ترى أن أنواع الفعل الأساسية اثنان – الفعل الماضي (perfective verb) والفعل المضارع (imperfective verb)،[7] أما فعل الأمر فهو يُدرّج تحت المضارع على التساوي مع الفعل المرفوع والمنصوب والمجزوم. بالكلمات الأخرى، فتدخل اللغويات الغربية فعل الأمر ليس في تصنيف أنواع الفعل الأساسية، ولكن تحت تصنيف مفهوم يسمى moods في الانجليزية، لأن اللغات الأروبية تميز أفعالا يُطلب بها حدوث شيء بعد زمن التكلم كـmood، أو كـ Imperative mood بالتحديد، في نفس المستوى مثل Indicative mood (وما يناسب الفعل المرفوع في العربية) وsubjunctive mood (يناسب الفعل منصوب) وjussive mood (يناسب الفعل مجزوم). أي المنهجين يكون أدقّ في وصف الفعل العربي؟ لنسأل أنفسنا سؤالا لنوضح ذلك الأمر: ما يجعلنا نفهم أن كلمة منطوقة أو مكتوبة فعل مضارع (حتى ولو كنا غير الناطقين بالعربية ولا نعرف معنى الكلمة المعطية)؟ يلوح لي أن هذه العلامة البدئية التي يجعلنا نفهم أن الكلمة فعل مضارع هي البداية يـ (أو تـ في المخاطب أو المؤنث). إذا سمعنا أو رأينا الياء في بداية الكلمة فنبدأ ندرك أنها فعل مضارع مثل يـكتب، يـحترم، يـتجاهل، يـتكلّم الخ. وتظهر هذه البداية في كل من الفعل المرفوع والمنصوب والمجزوم لأن كلها أشكال الفعل المضارع. ولكن إذا اعتبرنا فعل الأمر شكلا من أشكال الفعل المضارع، فأين هذه العلامة؟ نحن نقول: اكتب واحترم وتجاهل وتكلّم الخ وتغيب في كل الحالات هذه البداية المطلوبة لتكون هذه الكلمة الدالة على معنى في نفسها فعلا مضارعا. إذا كانت الكلمة تفتقر أولى علامات المضارعة فكيف نسميها كذلك؟ إذن، ليست في العربية أفعال الأمر مثل اكتب وتكلم أو أي فعل آخر أفعالا مضارعة.

هناك موضوع آخر يثير الاهتمام: تُبنيّ في الاستعراب ترقيم أوزان الأفعال ففي كل اللغات نشأت وتطورت فيها الدراسات العربية على النمط الغربي توجد مصطلح معين خاص لهذا الترقيم أو هذه الظاهرة اللغوية. ففي الانجليزية يطلق على هذه الظاهرة بـ form، وفي الروسية порода وفي لغتي الأصلية الجورجية (وجورجيا من البلاد المتقدم الدراسات العربية فيها) أيضا يوجد مصطلح خاص لهذا مفهوم (يُنطق كـ tema თემა). تقصد هذه الظاهرة ترتيب أوزان الأفعال حسب تعقدها مع الترقيم، ويتبين في هذه السلسلة 15 رقما، أولها الأبسط تركيبا على الوزن فعَل أو فعِل أو فعُل وهو يتكوّن من الأحرف الجذرية فقط وتشكيلها، ثم يتلو الرقم الثاني وهو يتكوّن من نفس الحروف الجذرية فقط مع تشكيلها ولكن الحرف الثاني في هذا الوزن مشدّد وهو الوزن فعَّل، ثم يأتي الوزن فاعَل، ثم أفعل، ثم تفعّل، ثم تفاعل إلخ حتى الرقم الخامس عشر الذي يأتي على الوزن اِفْعَنْلَى. ويعتمد هذا الترتيب على مبدأ زيادة المبنى (الذي كما هو معلوم يفيد زيادة المعنى)، بالكلمات الأخرى فكل رقم يكون في البنية أكثر تعقيدا مقارنة مع الرقم السابق وأقل تعقيدا مقارنة مع الرقم التالي. تعتبر هذه السلسلة من أساسيات الصرف العربي. وفعلا هذا الترقيم يسهّل كثيرا فهم العربية لغير الناطقين بها. أحيانا يُطرح عند متعلمي العربية سؤال: إذا كان هذا الترقيم أو هذه الظاهرة هامّا إلى هذا الحد، فلماذا لا يوجد في النحو العربي التقليدي ما يناسبها؟ كي نجيب هذا السؤال الشائع علينا أن نفهم شيئا في غاية الأهمية: يكون في النحو العربي التقليدي هامّا أن الكلمة تدل على معنى في نفسها (وليس في غيرها) وكل الأوزان الخاصة لتلك الكلمات تعتبر على نفس المستوى وتُدرس على نفس المستوى بغض النظر عن أكانت أسماء أم أفعالا. بينما الأمر ليس هكذا في اللغويات الغربية: يوجد هناك فرق حاد جدا في دراسة الأفعال والأسماء، ولا يجوز المزج بينهما. من نفس المجال عدم فهم الغربيين أن للكلمات الدالة على معنى في نفسها (أكانت أفعالا أم أسماء) قد تكون بعض العلامات المشتركة – لا العلامات التي تتطابق شكليا فقط بمجدر المصادفة، ولكنها نفس العلامات. مثلا نحن نقول الكلمة مرفوعة ونقصد كلمات مثل الكتابُ والبيتُ ويكتبُ ويدرسُ بقدم المساواة لأن حالة الرفع شيء مشترك بين الأفعال والأسماء لأن كلاهما كلمات دالة على المعنى في نفسها. أو نقول المنصوب ونعني كلمات مثل الكتابَ ويكتبَ في نفس الوقت ولنفس السبب. لا يفهم الاستعراب هذا الأمر ولا يطيق، وفلا يمكن هناك أن تكون هذه الضمة أو هذه الفتحة نفس العلامة بالضبط والتي تكون خاصة بالأفعال وبالأسماء بالتساوي. فما يعتبر حالة الرفع في النحو العربي، يناسب في اللغويات الغربية شيئين متباينتين عن بعضهما البعض هما Nominative case إذا أُطلق بالمصطلح "مرفوع" على الاسم، وIndicative mood إذا أُطلق على الفعل. يُفهم هناك أن الشيئين يتطابقان شكليا ظاهريا ولكنهما ليسا نفس الشيء بداخليتها. لعلّ السبب في ذلك هي الحقيقة أن اللغويات الأروبية تواجه مهمة وصف لغات مختلفة في بنيانها وطبيعتها ولذلك أُبتكر منهج سهل التكييف على أية من هذه اللغات.

هناك اختلافات في التعامل مع تركيب الجملة أيضا. المنهجان يعتبران أن أنواع الجملة في اللغة العربية اثنان: الاسمية والفعلية، ولكن أي نوع من الجمل تُعتبر اسمية وأيهما فعلية فهنا اختلاف بين المنهجين. حسب التقليد العربي تكون الجملة اسمية إذا بدأت بالاسم، أما فعلية فإذا بدأت بالفعل. أما النهج الأوروبي فيهتمّ إلى كيفية تعبير الفعل أو العملية أو الحركة أو الوضع في الجملة، إذا كانت تلك الأشياء معبّرة بطريقة الفعل فتعتبر الجملة فعلية حتى ولو بدأت باسم، أما إذا غابت في الجملة فعل فتعتبر هذه الجملة اسمية. على سبيل المثال الجملة: "الولد أبوه مات" تعتبر في التقليد العربي جملة اسمية حيث يكون "الولد" مبتدأ أما "أبوه مات" فيكون خبرا جملة. ولكن الطريقة الغربية تعتبر أن الجملة جملة فعلية لأنها تحتوي على فعل الماضي الذي يعبّر عن حدث أنّ أبا الولد مات. ولا تتناول الطريقة الغربية الكلمة "الولد" على أنها مبتدأ ولكنه متبدأ غير الحقيقي، أو

مبتدأ متظاهر لأن القول "الولد أبوه مات" له نفس المعنى كـ "مات أبو الولد"، ولكن في الجملة أعلاه الكلمة الولد يبدأ الجملة وهو مرفوع مثل المتبدأ بالضبط ولكنها في الحقيقة مفعول به (لأنه من مات هو الأب وليس الولد). لذلك يسمى مبتدأ غير حقيقي أي متظاهرا.

كما نرى من هذه اللمسة السريعة فإن الاختلافات في المنهجين كثيرة ولا يمكن دراستها بأكملها في إطار مقال. ولكن التقرير يهدف إلى جذب الاهتمام نحو الموضوع من وجهة نظر متعلم اللغة العربية غير الناطق بها ومن درس العربية تبعا للطريقة الغربية أولا ثم عرف عن الطريقة العربية وحاول أن يفهمها ويتعمّق فيها. إذا سئلتُ أن أردّ في جملة واحدة، ما هو الفرق الأبرز بين المنهجين العربية والغربية لوصف اللغة العربية فلعلّ أجبت: أن النحو العربي الأصيل يرى أن اللغة العربية وحـيـدة ويدرسها من داخليتها أخذا بعين الاعتبار خواصيها هي بالذات دون الانتشار على اللغات الأخرى، بينما يرى التقليد الغربي أن العربية واحـــدة ضمن اللغات الكثيرة ويكيف عليها المناهج المتبنّى لوصف لغات أخرى. ولا يعني ما سبق ذكره أن المنهج الغربي لا يهتم إلى العربية بقدر مطلوب. ولا يعني المذكور أعلاه أن اللغويات الغربية الأصل تحاول تغيير اللغة العربية، طبعا هي أيضا تصف اللغة العربية كما هي، كلا المنهجين في التعليم تنتهي إلى نفس النتائج، ولكن ما يعمل الفرق فهو المنطقان متباينتان عن يعضهما البعض.

المراجع:

1- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة.

2- J. A. Haywood, Arabic Lexicography: Its History and Its Place in the General History of Lexicography, Leiden, Brill, 1960, 17; R. Baalbaki, The

Arabic Lexicographical Tradition: From the 2nd/8th to the 12th/18th .Century, Leiden, Brill, 2014, 60

.Srisa Chandra Vasu, The Ashtadhyayi of Panini, 1981 -3

.K. Versteegh, The Arabic Language, New York, Press, 1997, 1-8 -4

F. J. Cadora, Bedouin, Village and Urban Arabic, Leiden, New York, -5 .Köln. 1992, 9

.Ch. A. Ferguson, Diglossia. – Word, N15, 1959, 325-240 -6

W. Fishcer, A Grammar of Classical Arabic, London, -7 New Haven, Yale University Press, 2002; W. Wright, Arabic Grammar, .Chicago, 1997, 51